المستشرقون والرحالة الأجانب ودورهم في كتابة التاريخ

أ.م.د. نزار كريم جواد الربيعي كلية التربية / جامعة أربيل

مدخل :

لقد كان الدين الإسلامي الحنيف الموضوع الأساس الذي كانت تخشاه الأمم الصليبية لذلك عملت بكل ما استطاعت على محاولة إبعاد المسلمين عن دينهم واعتبرت إن ضعف الإسلام عند المسلمين هو نصر لتحقيق أهدافهم، والحروب الصليبية التي أمتدت طوال قرنين من الزمان كان من أهدافها الرئيسة القضاء على الدين الإسلامي وتنصير المسلمين.

فالمواجهة أذن كانت مواجهة فكرية أمام تيار فكري مضاد، وكأن التاريخ الآن يعيد نفسه، فالحرب أو المواجهة الآن بين الإسلام والتيارات الفكرية المناوئة له، حرب أفكار، والمعركة أذن معركة فكرية، ويجب أن يكون لدى المسلمين الأدوات التي يجب ان يتسلحوا بها لخوضها فأية خسارة في هذه المواجهة (المعركة الفكرية) ستكون أشد وطأة وأقوى تأثيراً واعظم فتكاً، من خسارة أية معركة حربية أياً كان نوعها وحجمها [١].

ولنضع مثلاً رائداً في تاريخ الفكر الأسلامي للوقوف امام التيارات الفكرية المناوئة، الأمام الغزالي (ت-٥٠٥ هـ)، الذي خاض غمار معارك فكرية عديدة، وخرج منها جميعا منتصرا، وسلاحه، قد أودع كتابه (المنقذ من الضلال) حيث يقول: " ... أنه لا يقف على فساد نوع من العلوم من لايقف على منتهى ذلك العلم، حتى يساوى أعلمهم من أهل ذلك العلم، ثم يزيد عليه ويجاوز درجته، فيطلع على مالم يطلع عليه صاحب العلم ... وأذ ذاك يمكن أن يكون ما يدعيه من فساد حقاً" [٢].

وقد يتمثل الجانب الايجابي للمستشرقين في صورة الهجوم علينا وعلى أمجادنا وليس في صور المدح، واذا كان هذا الأمر لا يبدو غريبا على المستشرقين، فكلنا يعلم ان هناك عددا لا بأس به من المستشرقين المنصفين، قد مدحوا حضارتنا في مؤلفاتهم، وأثنوا على علمائنا ومجدو تراثنا، ومنهم المستشرقة الألمانية (زيجرد هونكه) في كتابها (شمس الله تسطع على الغرب)[٣]

ويعلق (مالك بن نبي) فيقول: "لكن هناك ملاحظة في هذا المقام تخصنا نحن المسلمين، وتتلخص هذه الملاحظة في أن جانب المدح والثناء قد يكون له تأثير تخديري علينا، فيجعلنا

---

[١] أحمد عطية رمضان، موقف المؤرخين العرب من كتابات المستشرقين، مصر، ١٩٨٧، ص٧.

[٢] الغزالي، المنقذ من الضلال، تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود، ص١٠٣.

[٣] محمود حمدي زقزوق، الأستشراق، الدوحة ١٤٠٤، ص١٢٦.

نغمض عيوننا مستسلمين لتلك الأحلام السعيدة، التي تذكرنا بالعز الذي كان، ونركن الى ذلك، ونعيش على صيت أبائنا وأجدادنا، ونظن أننا عظماء لأن أجدادنا كانوا عظماء"[١].

ويقول هشام جعيط : "فلا يجوز أن نقف دائما موقف المعتدى عليه، فالمعتدى عليه غاليا ما يكون ضعيفا، ولهذا لابد أن نغير أفكارنا ونحررها من حالة الجمود الفكري، لأن الاستشراق وأفكاره مستمدة من ضعفنا، ووجود الأستشراق نفسه مشروط بعجز العالم الاسلامي عن معرفة ذاته، فالاستشراق في حد ذاته كان دليل وصاية فكرية" [٢].

ولهذا ينبغي علينا أن ننظر الى حركة الأستشراق بكل جدية، ونأخذ في الأعتبار أن لها آثاراً كبيرة على قطاعات عريضة من المثقفين في العالم الأسلامي، وفي العالم الغربي على السواء، ولهذا لابد من دراسة الأستشراق دراسة عميقة، ولا يكفي أن نقول أن مايكتبونه _كلام فارغ_ فهذا الكلام الفارغ مكتوب بشتى اللغات الحية، ومنتشر أنتشارا واسعا على مستوى عالمي، ومواجهته على حد قول الدكتور حسين مؤنس: "لابد أن تكون على المستوى العالمي نفسه بالكلام المليان "[٣]

وفي سبيل الحفاظ على هويتنا وتراثنا وأستقلالية شخصيتنا الأسلامية، يقول مالك بن نبي: " لقد آن الآوان للتفكير على مستوى العالم الاسلامي، في أقامة مؤسسة علمية عالمية، لا تنتمي بالولاء لقطر معين من الاقطار الاسلامية، ولا لمذهب سياسي او فكري او ديني معين، بل يكون ولاؤها الأول والأخير لله وحده تعالى ولرسوله (صلى الله عليه وسلم) وتستطيع أستقطاب الكفاءات العلمية الأسلامية في شتى أنحاء العالم، وتقف على قدم المساواة مع الحركة الأستشراقية، ويكون بها دوريات ومجلات علمية ذات مستوى رفيع، تنشر بحوثها للغات مختلفة وتعمل على استعادة أصالتنا الفكرية واستقلالنا في ميدان الأفكار" [٤].

كما أكد هذا القول الدكتور زقزوق أذ يقول: "أن هناك ضرورة ملحة لأقامة مؤسسة عالمية للبحوث العلمية الأسلامية، بصرف النظر عن جنسياتهم، تكون بعيدة كل البعد عن أي تيارات سياسية أو دعائية، ويتكون أعضاؤها من صفوة الباحثين الأسلاميين في شتى المجالات في حدود مائة عضو، يتوزعون الى مجموعات عمل وتخط هذه الصفوة للبحوث الأسلامية في جامعات العالم الأسلامي، فتصل الماضي بالحاضر، وتجدد شباب تراثنا وتجنده لخدمة الحياة الأسلامية المتجددة، وهكذا يمكن لهذه المؤسسة أن تقف بالمرصاد لكل التيارات المناوئة للأسلام، كما يمكن لهذه المؤسسة أيضا أن تتبنى تيار الأستشراق يقوم بدراسة تراث الغربيين ونقد ما عندهم من دين وعلوم وحضارة [٥] .

ومما لاشك فيه أن الأستشراق له أثر في العالم الغربي، وفي العالم الأسلامي على السواء، وأن أختلفت ردود الفعل على كلا الجانبين، ففي الغرب لم يعد في وسع أحد أن يكتب في المشرق سياسيا وحضاريا، أو يفكر في الشرق او يمارس فعلا مرتبطا به، أن يتخلص

---

[١] مالك بن نبي، أنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الأسلامي الحديث ، مجلة الفكر العربي، العدد ٣٢، القاهرة ١٩٨٣، ص٢٣ ، ١٣٠-١٣٤.

[٢] هشام جعيط ، أوربا والأسلام، ترجمة د. طلال عتريسي، بيروت، ١٩٨٠، ص٦٨.

[٣] محمد البهي، الفكر الأسلامي الحديث، مقالة ملحقة للدكتور حسين مؤنس في نقد المستشرق (فييت) ، بيروت ١٩٧٠، ص ٥٧٦ ـ ٥٧٧.

[٤] مالك بن نبي ، المصدر السابق ، ص ٦٥.

[٥] محمود حمدي زقزوق، الأسلام في الفكر الغربي، الكويت ١٩٨٠، ص ١٦-١٧.

من القيود التي فرضها الأستشراق على حرية الفكر في هذا المجال، وعلى ذلك فالاستشراق يشكل شبكة المصالح الكلية التي يستحضر تأثيرها بصورة لا مفر منها في كل مناسبة، يكون فيها ذلك الكيان العجيب (الشرق) موضوعاً للنقاش[١].

كما لايجوز التقليل من شأن الأستشراق بالنظر اليه على انه قضية منفصلة عن باقي دوائر هذا الصراع-بين العالم الاسلامي والعالم الغربي- فقد كان للاستشراق اكبر الأثر في صياغة التطورات الأوربية عن الاسلام، وفي تشكيل مواقف الغرب أزاء الإسلام، على مدى قرون عديدة، ولا يزال الأوربيون حتى اليوم يستقون معلوماتهم من الإسلام من كتابات المستشرقين[٢].

ويرجع سبب البدايات الدبلوماسية التبشيرية الى ذلك الصراع بين العالمين الأسلامي والمسيحي في كل من الاندلس وصقلية، كما دققت الحروب الصليبية تالى اشتغال الاوربيين بتعاليم الأسلام وعاداته وحضارته وتراثه الى درجة تأثرهم بالنظم والحضارة الأسلامية كي ينفثوا سمومهم بين المسلمين في بلاد الشام[٣].

جاء الصليبيون الى الشرق وهم يحسبون أنهم سيلقون فيها قوما كفارا جهلاء ودهشوا غاية الدهشة حين وجدوا المسلمين يفوقونهم علما وحضارة ورأوا من كرم العرب وسمو اخلاقهم ما جعلهم يشيدون بهم رغم ماكان بينهم من عداوة.

ولهذا الاتصال اثار سياسية وعسكرية واجتماعية، فكان مدعاة لأضعاف سلطة الكنيسة وخلق نواة جديدة للوحدة الأوربية،ونقلوا إلى أوربا شيئا من الفنون العسكرية وبعض العادات والتقاليد الشرقية، وأصاب نظام الاقطاع في الصميم، اما اثاره الثقافية فكانت محدودة ، لان المسيحيين لم ينعموا في هذه الفترة بالهدوء اللازم للبحث والدراسة وحملة اساسها خصومة دينية لاتفسح السبيل عادة لتبادل ثقافي وفكري[٤].

فمثلا عاد الصليبيون الى بلادهم ولم ينقلوا اليها شيئا من طب العرب رغم ماكانوا يعرفونه يقينا من تفوقهم فيه، ولا غرابة في ذلك، فالمحاربون الصليبيون كان اكثرهم من ذوي الحرف الذين لم يكن لهم حظ من الثقافة، وكان بعض أمرائهم مثقفين، ويقال ان (همفري الرابع) كان يعرف العربية، وان (رينالدو) صاحب درس الإسلام إلى حد ما، وان (بلدوين الثالث) ويسميه العرب بفدوين، وعطريق الاول كانا على جانب كبير من الثقافة، واغلب الظن انها كانت ثقافة بسيطة من النوع الرشيق الذي يستطيعه النبلاء، ولم يعن بالعلم العربي الا القليلون، منهم (جيمس) المنسوب الى (فيتزي) الذي كتب كتابا تحدث فيه عن بعض العلوم العربية، وذكر رأي العرب في الزلازل وغيرها، ولم يكن بينهم عالما حقا الا (ويليام الصوري) نسبة الى بلدة صور، وهم من اكبر مؤرخي القرون الوسطى، ويدل على عدم عناية الصليبيين بالعلم، أنهم مع طول اقامتهم لم تكن لهم مدارس يعلمون فيها ابناءهم،

---

[١] أدوارد سعيد، الأستشراق، ترجمة كمال أبو ديب، بيروت، ص٣٩.

[٢] المصدر السابق، ص٩.

[٣] أحمد عطية رمضان، العلاقات بين المدن الأيطالية والدولتين الفاطمية والأيوبية، القاهر ١٩٨٤، ص٢٣٣.

[٤] صالح رمضان محمود ، أهم المبدعين في مجالات الفكر والعلم التي أغنت بها الحضارة العربية الأسلامية المسيرة الأنسانية، ، جامعة عدن، ١٩٨١، ص١٧.

ووليام الصوري ولد في الشرق ولكنه تعلم في اوربا[١]، علما انه لم تكن عند الصليبين قدر كاف من الحضارة تسمح لهم باستيعاب العلوم العربية.

فتح العرب صقلية في اوائل القرن التاسع الميلادي وحكومها نحو قرنين، في ذلك العصر كانت الحضارة في سالريو وبالرمو (صقلية) مزيجا من الثقافة العربية واللاتينية والاغريقية وكانت الصدارة للثقافة العربية، وخاصة ان تفوق العرب في العلوم عامة كان واضحا كل الوضوح ولما زالت دولة العرب وجاء الحكام النورمان، ظلت الثقافة العربية قائمة وعني النورمان بالعلوم العربية وخاصة ملكهم الشهير فردريك الثاني الذي كان يعرف العربية ويخاطب بها ضيوفه من العرب، وعمل على تشجيع حركة الترجمة واراد ان ينشر الحكمة اليونانية والعلوم الاسلامية، وكان على صلة بحكام الشرق وولاته، استطاع ان يجمع ثروة طائلة من المؤلفات العربية، ولعله حصل على كتب ابن رشد جميعها، ولما لم يمض على وفاته ربع قرن، ودعا اليه كبار المترجمين وفي مقدمتهم (ميشيل اسكوت)[٢] تلك الشخصية شبه الاسطورية، ويظهر انه كان يعرف كيف ينظم اعمال الترجمة، وقد حرص الامبراطور ان يوزع ترجماته على الجامعات الاوربية، رغبة في نشر العلم ويدافع من منافسة البابا في الغالب[٣] .

وكان للحضارة العربية في الاندلس بريق خلب ألباب معاصريها وكان لمظاهر المدنية فيها رواء لم يخطئه احد من جيرانهم، على حين كانت الحضارة في المشرق عريقة أصيلة، وكان العداء بين العرب ومن يليهم من الأمم اللاتينية شديدا والحروب مستمرة والخلافات السياسية على اشد ما تكون ولم تمنع هذه العداوة من تبادل الفلسفة والعلوم والطب بينهم، وللمؤرخ ان يتساءل هل أراد العرب هذا التبادل اثباتا لتفوقهم وتفاخرا به، او كان الحافز عليه رغبة الأمم اللاتينية في منافسة العرب ونزع سلاح تفوقهم الفكري فيكون ذلك وسيلة للتفوق عليهم حربيا وسياسياً، أم كان ذلك أثرا طبيعيا للحوار بين حضارتين احداهما فتية والأخرى ضعيفة مهلهلة، وللمؤرخ أن يسأل من الذي شجع المترجمين ومن هم الذين أمدوهم بالمال اللازم لذلك ولم يكن على العرب لأن يقوموا بمثل هذا، ولعل للكنيسة شأنا كبيرا في تشجيع التبادل على شدة العداء بينها وبين المسلمين، ان الجهد العجيب الذي حققه نقلة المؤلفات اليونانية في الشرق في القرن التاسع تجدد في الاندلس، ولكنه كان هذه المرة في أطار اللغة اللاتينية، وكانت المعرفة العربية تشكل جوهر هذا الجهد [٤]

أفتتح (ريموند) رئيس أساقفة طليطلة بداية هذا الجهد، وأصبحت طليطلة بفضل ريموند في القرن الثاني عشر ملتقى كبار المفكرين الغربيين (فأوهمار) من أهل بات بانجلترا (وهرمان) من أهل دلماسيا، و (روبرت) من أهل رتين ببلجيكا، كانوا جميعا يرغبون رغبة ملحة في المعرفة، وكانوا يأتون الى الأندلس بحثا عما لا يجدونه في بلادهم

---

[١] محمد كامل حسين، الطب والأقربازين، من كتاب أثر العرب والأسلام في النهضة الأوربية، ص ٢٨٤.

[٢] سبقه في ذلك في القرن الحادي عشر (قسطنطين الأفريقي) وأصله من تونس ورحل الى سالرنو ليقف بنفسه على ترجمة المؤلفات الطبية الى اللاتينية، وتوفي في سنة ١٠٨٧، ويعتبر مجدد التآليف الطبية في الغرب: صالح رمضان محمود ، المصدر السابق، ص ١٩.

[٣] ابراهيم بيومي مدكور، أثر العرب والأسلام في النهضة الأوربية، القاهرة، ١٩٧٠، ص١٤١.

[٤] صالح رمضان محمود ، المصدر السابق، ص٢٠.

وضرب الفونس العاشر الملك العالم وحاكم قشتاله – المثل الأعلى واحاط نفسه بعلماء من جميع النحل مزدريا التاج الامبراطوري.

لم تبلغ دون شك مدرسة النقلة الشهيرة في طليطلة عظمة مدرسة بغداد، ومع ذلك وبغض النظر عن ترجمة الكيميائيين، والى جانب طليطلة أزدهرت حركة الترجمة في قطالونية وامتد النفوذ الفكري لهذا البلد حتى مونبلييه [١] ،هذا وقد أنتقلت الثقافة العربية الأسلامية الى أوربا عن طريق الحروب الصليبية والأندلس، وكان للحضارة العربية في الاندلس بريق خلب ألباب معاصريها، على حين كانت الحضارة في المشرق عريقة أصيلة، وأتخذ الأوربيون السبيل الطبيعي لتحقيق نقل العلوم العربية أليهم وهو طريق الترجمة، وهكذا فأن التيار الكبير للثقافة الذي بدأه اليونان والرومان عاد من جديد تحت شكل موحد للحضارة اليونانية في الشرق، حيث كان العرب قد جمعوها فيه، ثم أضافوا أليها الكثير وضخموها بجهودهم المبتكرة.

ويمكننا القول انه في تلك الفترة المبكرة للأستشراق، يوجد اتجاهان مختلفان فيما يتعلق بالاهداف والمواقف أزاء الأسلام:

الأتجاه الأول: كان اتجاها لاهوتيا متطرفا في جدله وعمقه، ناظرا الى الأسلام من خلال ضباب كثيف من الخرافات والاساطير.

الأتجاه الثاني: فقد كان نسبيا إلى الأتجاه الأول، أقرب الى الموضوعية والعلمية حيث نظر الى الأسلام بوصفه مهد العلوم الطبيعية والطب والفلسفة والتاريخ، ولكنه ظل الأتجاه الخرافي حياً حتى القرن السابع عشر وما بعد ذلك، ولايزال هذا الاتجاه للأسف حيا في العصر الحاضر في معظم كتابات المستشرقين عن الإسلام ونبيه الكريم (صلى الله عليه وسلم).

حيث لم يكن من السهل بالنسبة لتطور الاستشراق فصل الاستشراق عن التنصير او عن الدافع الديني بصفة عامة، فالدافع الديني كان السبب الاول في نشأت الاستشراق، والتنصير يتفق مع الاستشراق في هذا الصدد، لأن التنصير هو الطريقة الوحيدة التي يمكن بها توسيع رقعة العالم المسيحي، ولبلوغ ذلك على حد قول (ساوذرن Sauthern): "أن الأسلام يمثل مشكلة بعيدة المدى بالنسبة للعالم النصراني في أوربا على جميع المستويات كافة " .

وهناك ظفرت مشكلة تاريخية، صار من المتعذر حلها دون معرفة أدبية ولغوية يصعب أكتسابها، وصارت المشكلة أكثر تعقيدا بسبب السرية والتعصب والرغبة القوية في عدم معرفتها خشية الدنس [٢].

ومع بدء حركة الاكتشافات الجغرافية تتمثل الأحقاد الأوربية ضد الإسلام والمسلمين في محاولات البرتغال في الالتفاف حول العالم الإسلامي، والإساءة إلى المشاعر المقدسة [٣] ،في حكمها قبل القرن الثامن الهجري – الرابع عشر الميلادي، وبعد تطورها في المجال البري تكررت الحملات البرتغالية الى الشرق الواحدة تلو الاخرى، هادفين من ذلك الوصول

---

[١] جاك. س. ريسلر، الحضارة العربية، ترجمة غنيم عبدون، مراجعة د. أحمد الأهواني، القاهرة، ١٩٧١، ص٢٢٦-٢٢٧.

[٢] ساوذرن، نظرة الغرب الى الأسلام في القرون الوسطى، ترجمة د. علي فهمي خشيم ود. صلاح الدين حسني، ليبيا، ١٩٧٥، ص١٧.

[٣] محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس، ط٣، مطبعة التأليف، ١٣٨٦ هـ، ١٩٦٦م ، ص٣٢٢.

الى الموانيء الساحلية في الهند والخليج العربي وتطويق العالم الاسلامي وأنشاء مراكز تجارية تخدم أهدافهم الاستعمارية، واكثر نوايا الصليبيين ضد الاسلام، ما تحدث به قائد الحملة البرتغالية (البوكيرك) في خطابه الذي ألقاه على جنده بعد وصوله الى ملقا، حيث قال: أن الخدمة الجليلة التي سنقدمها لله بطردنا العرب من هذه البلاد وبأطفائنا شعلة شريعة محمد بحيث لا يندفع لها هنا بعد ذلك لهيب [١] ، هذه هي الرؤية الغربية المسيحية للدين الاسلامي والامة العربية لبث السموم في تراثنا وحضارتنا، والعمل على وقف المد الاسلامي وانتشاره ووحدة الامة العربية والاسلامية، ومما يثبت لنا هذه الرؤية الحاقدة نورد بعض أقوالهم للتوضيح والاستشهاد فقد جاء في الكتاب الذي وضعه المستشرق (هـ. دانبي) بتكليف من لجنة مؤتمر القدس التبشيري هذه العبارة: "أنه ليس غرض التبشير التنصير فقط ولكن أقصىما يجب على البشر عمله هو تفريغ القلب المسلم من الايمان با لله " [٢].

ويقول (لورانس براون Lawrance Brown) : " أذا أتحد المسلمون في أمبراطورية عربية أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطرا، وأمكن أن يصبحوا معضلة أيضا، اما اذا أبقوا متفرقين فأنهم يظلون حينئذ بلا قوة ولا تأثير " [٣]، ويقول القس (كالهون سبيمون): "أن الوحدة الاسلامية تجمع أمال الشعوب السود وتساعدهم على التملص من السيطرة الاوربية، ولذلك كان التبشير عملا مهما في كسر شوكة هذه التحركات .. ذلك لأن التبشير يعمل على أظهار الأوربيين في نور جديد جذاب وعلى سلب الحركة الإسلامية من عنصر القوة والتمركز فيها"[٤].

لقد وقف أعداؤنا ضد الدين الاسلامي ومن اجل ذلك عمل المستشرقون بكل الوسائل لتحقيق أهدافهم وأهداف دولهم، واستخدموا في ذلك تأليف الكتب ونشر المقالات في السجلات العامة وغيرها.

صلة الأستشراق بالأستعمار:

كان للسيطرة الغربية على الشرق دورها في تعزيز موقف الأستشراق، وبذلك فالاستشراق كان له دور كبير في تحديد طبيعة النظرة الاوربية الى الشرق ، بل ومهد للمد الاستعماري في العالم الاسلامي ، وخصوصا بعد منتصف القرن التاسع عشر [٥]، حيث تم أستيلاء الأنكليز على الهند عام ١٨٥٧، كما تم أستيلاء فرنسا على الجزائر كلها في نفس العام ١٨٥٧، بعد أن بدأوا بغزوها عام ١٨٣٠، وأحتلت هولندا قبل ذلك أندونيسا عن طريق شركة الهند الهولندية، وبعد عام ١٨٨١ تم احتلال مصر وتونس.

وظل الاستعمار يقوم بتقطيع أوصال البلاد الأسلامية شيئا فشيئا، ويضعها تحت سيادته حتى استطاع في النهاية ان يطوق العالم الاسلامي من الشرق الى الغرب، واصبح العالم

---

[١] بانيكار، أسيا والسيطرة الغربية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٢، ص١٠.

[٢] عبد الرحمن الميداني، غزو في الصميم، بيروت، دار القلم، ط١، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م ، ص٢٧.

[٣] عمر فروخ ومصطفى الخالدي، التبشير والاستعمار، بيروت، المكتبة العصرية، ١٩٨٣، ص٣٧.

[٤] نقلا عن كتاب لورانس براون (الاسلام والارساليات Islam and Missicns) ، ص٣٧.

[٥] مكسيم رودنسون، تراث الاسلام، ترجمة محمد زهير السمهوري، تصنيف شاخت وبوزورث، ج١ ، سلسلة عالم الفكر ، الكويت ، ١٩٧٨ ، ص ٨٣ ؛ أدوارد سعيد ، المصدر السابق ، ص ٧٢.

الاسلامي كله بعد الحرب العالمية الاولى خاضعا لنفوذ الاستعمار الغربي، وذلك بفضل جهود المستشرقين[١].

لقد سبقنا المستشرقون في العصر الحديث بتأليف كتب في التاريخ العربي الاسلامي العام وقد شملت كتبهم بالطبع الفترة العباسية، ولعل من روادهم في هذا الباب المستشرق الألماني (Weil) الذي أصدر كتابه (تاريخ الخلافة) بخمسة أجزاء باللغة الأمانية، في شتوتكارت سنة ١٨٤٦- سنة ١٨٦٢ ، ثم تبعه (Muller) في كتابه الموسوم (الاسلام في المشرق) بجزأين ونشر بالألمانية في برلين سنة ١٨٨٥- سنة ١٨٨٧ ، ثم توالت مؤلفات المستشرقين من أمثال بروكلمان وسيولر وبرنارد لويس وكاها في التاريخ الاسلامي العام، كما مثل هذا الاتجاه بحوث نخبة من المستشرقين في (تاريخ العصور القديمة) لجامعة كمبردج سنة ١٩١١- سنة ١٩٣٦ ، ودائرة المعارف الاسلامية التي صدرت طبعتها الاولى سنة ١٩١٣- سنة ١٩٣٦ ، ومع بدايات القرن العشرين بدأت المؤلفات التاريخية العربية الأولى بالظهور فكتب (رزق الله الصدفي) كتابه في (تاريخ الاسلامي) القاهرة ١٩٠٧، وتبعه (جرجي زيدان) في (تاريخ التمدن الاسلامي) القاهرة سنة ١٩١٨، محمد كرد علي وفيليب متي وأحمد أمين وحسن أبراهيم حسن[٢] .

أن المؤلفات التي أشرنا اليها تأثرت بالمناهج التقليدية والمناهج الاستشراقية الحديثة في كتابة التاريخ، فبعضها أكتفى بسرد الأخبار على توالي الخلفاء دون أشارة الى مصادره او مناقشة رواياته (مثل رزق الله الصدفي والخضري) ومنها من اتبع الطريقتين الاخبارية على توالي الخلفاء ثم دراسة الحركات والمظاهر الحضارية مع بعض التحليل والمناقشة مثل (حسن ابراهيم حسن) وبعضها بالغ في التهميش واستقى من المستشرقين ورد على بعض آرائهم مثل (عبد المنعم ماجد) ومنها من أتبع العلمية الحديثة في التحليل والمناقشة وأبداء الرأي والتهميش ولكنه دخل في جدال ومشادات مع من سبقه من المؤرخين موردا وجهات نظر وفرضيات حول أحداث تاريخية لاتؤيدها الروايات التاريخية تماما وبمعنى أخر تحميل النصوص التاريخية فوق طاقتها مثل (محمد عبد الحي شعبان).

ويورد ستيفن هيمسلي لونكريك في كتابه (اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث)[٣] ضمن قائمة مراجعه من العراق للفترة مابين ١٥٥٣ و١٩١٤ أسماء ثمان وتسعون رحلة وتقرير ومقالة مسهبة، وكلها تصف العراق وأوجه الحياة فيه بطريقة أو بأخرى، أما اصحاب هذه الرحلات فهم بين برتغالي وفرنسي وهولندي وألماني وأيطالي، وانكليزي وامريكي وأرمني وهندي وايراني وتركي، غير ان القسم الكبير منهم من الانكليز.

ومعروف ان المصالح الاستعمارية قد رفعت من اهمية العرق منذ القرن الثامن عشر، وخاصة في نصفه الثاني، وعندما نشبت حرب السنوات السبع استخدمت بريطانيا طريق العراق الى الهند خلال هذه الحرب، ورفعت تمثيلها في البصرة الى درجة قنصلية، وبعد ان

---

[١] محمد البهي، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، بيروت ، ١٩٧٠، ص ٢٩– ٣٠.

[٢] أحمد أمين، ضحى الإسلام، القاهرة ، ٣ أجزاء ، ١٩٣٨- ١٩٤٣ ؛ أحمد شلبي ، التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، ج٣ ، ١٩٦٦ ؛ حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام ، القاهرة ؛ عبد الحي شعبان، التاريخ الإسلامي بجزئين، ١٩٧١؛ عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسي للدولة العربية، القاهرة ، ١٩٧٩ ؛ فيليب متي، تاريخ العربي، ١٩٣٧؛ محمد اسعد أطلس ، تاريخ الأمة العربية ، بيروت ١٩٣٦ ؛ محمد كرد علي، الإسلام والحضارة العربية، القاهرة ، ١٩٣٤- ١٩٣٦.

[٣] ستيفن هيمسلي لونكريك ، اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، نقله الى العربية جعفر الخياط، الطبعة السادسة ، بغداد ، ١٩٨٥.

كانت لها وكالة تجارية، كما اقامت مقيمية في بغداد سنة ١٧٩٨، وتولى مهمتها (هارفورد جونز) الذي كلف بان يعد تقريراً مفصلا عن أحوال العراق الأقتصادية والعسكرية [١] .
وفي خلال تلك الحقبة كثر أتصال العراق بالعالم الخارجي وتعددت أوجهه، وصار الكثيرون من الأوربيين وغيرهم يقصدونه ويتجولون في أرجائه، أن طلائع الرحالة الأوربيين الى العراق قد بدأت في وقت مبكر من العصر الحديث ولعل من أبرز أولئك الرحالة (سيزار نيدريكو [٢]، وليونهارت راوولف [٣]... وغيرهم).
ويمكن القول ان صورة العراق كما كانت عليه زمن زيارة أولئك الرحالة له، تعد مظهرا للحقبة التاريخية التي أعقبت الغزو المغولي وما رافقها من أهمال معالم العراق الحضارية، ويشير الرحالة الفرنسي (جان باتيست تافر) الذي زار بغداد سنة ١٦٣٢ وكانت تحت وطأة الأحتلال الصفوي، حيث يقول أن جوامعها معدودة وخاناتها العشرة متداعية وحالتها العمرانية سيئة [٤].
وعن تلك الفترة يقول (ريجارد كوك): " حال بغداد مرة اخرى الى الحضيض، فلقد أصاب الحصار كثيرا من البنايات الكبرى فيها ولم تصلح من شأنها الا قليل ولعل هذا الوقت هو بدء زوال ما بقي من مشيدات في عهد الخلفاء، وأنهيار المدارس والحياة الثقافية أنهيارا نهائيا" [٥].
وفي ستينيات القرن الثامن عشر وصل بغداد الرحالة الألماني (كارستن نيبور) وكان ضمن بعثة علمية تضم خمسة علماء دنماركيين وألمانيين وسويديا واحدا، أوفدهما (فردريك الخامس) ملك الدنمارك الى بلدان الشرق الأدنى وجنوب الجزيرة العربية، و لعل هذه الرحلة تعد أخر الرحلات في عصر الأستكشافات الجغرافية وباكورة رحلات العصر الأستعماري الحديث، وكانت مهمتهم موزعة حسب تخصصاتهم وهي الدراسات الأنثرولوجية واللغات القديمة والعلوم الطبيعية والرسوم الفنية، ويبدو من متابعة رحلة نيبور أنه كانت له اتصالات بالهولنديين في منطقة الخليج العربي، وأنهم هيأوا له مستلزمات تنقلاته في المنطقة، وفيما يخص العراق فانه قد حل في حزيران ١٧٦٥، ولغاية ربيع ١٧٦٦ ويظهر من دراسة رحلته أنه أولى أهتماما كبيرا لجوانب الجغرافية والعسكرية والعمرانية في العراق، وقدم خرائ مهمة في هذا المجال[٦].
لقد وضع التوسع الاوربي فيما وراء البحار يده على مساحات كبيرة من ديار الأسلام، على مر الزمن، ولقد بلغ هذا التوسع ذروته في القرن التاسع عشر عندما صارت أوربا سيدة لمنطقة أسلامية شاسعة، يسكنها ملايين المسلمين، ولقد صحب الاستعمار السياسي، وبمعنى اعمق وأدق ، لقد سبق الاستعمار السياسي تعزيز ثقافي في اكثر دهاء، مهد للأستعمار [٧]،

---

[١] علاء موسى كاظم النورس، المصدر السابق، ص ٣.
[٢] أحد تجار البندقية، وقد زار بغداد في عهد الوالي خضر باشا وذلك سنة ١٥٦٣.
[٣] طبيب هولندي قدم بغداد سنة ١٥٧٣ في عهد الوالي عبد الرحمن باشا.
[٤] تا فرنييه ، العراق في القرن السابع عشر، ص ٨٥- ٨٦ ؛ سرو اليس رحلات إلى العراق، ج١ ، ترجمة فؤاد جميل ، ط١ ، بغداد ١٩٦٦ ، ص ٥٩-٦٠.
[٥] بغداد مدينة السلام ، ج٢ ، ترجمة فؤاد جميل ومصطفى جواد ، بغداد ، ١٩٦٧ ، ص٢٢.
(٦) Niebuhr, Carsten, Voyage en Arabic Amsterdam, 1776, Description de L Arabic , (Amsterdam), 1774.
[٧] عبد اللطيف طيباوي، المستشرقون الناطقون بالانجليزية، مجلة العالم الإسلامي ، ترجمة الدكتور فتحي عثمان، ١٩٦٣، ص ٩٦.

وفي ظل هذا الوضع الجديد، بدأ التعليم المدني يعد جذوره، كما أتبع للعمل التبشيري ان يكون ممكناً، وتقاسم التعليم المدني والتبشير المسيحي، الاتجاه الى تغذية التشكيك في اسلوب حياة المسلمين واخرجت هاتان الطائفتان ، المبشر المسيحي والمثقف المدني الغربي، عدد من المتخصصين الجدد في العربية او الفارسية او التركية، كانوا روادا بين ايدي المستشرقين الأكاديميين، وأقتنع التبشير من كتابات هؤلاء، أنه اذا كانت قوة الأسلام السياسية قد أهتزت ، فأن انحلال قوته الروحية وتحول أتباعه إلى المسيحية قد بات في متناول اليد[١].

وقد أوضح الدكتور عبد اللطيف طيباوي: "أن حملة فتح مصر وما أثمرت عنه من أحتلال أنجلترا لمناطق واسعة من البلاد، هو مما يزيد من مسؤولية المسيحيين الأنجليز في تقديم أنجيل المسيح الى مصر [٢]، وأعقبت الحملة الفرنسية على مصر نشاطا بريطانيا واسعا في منطقة الخليج العربي والعراق من اجل غلق المنافذ أمام الفرنسيين، وقد نجح السفير البريطاني في العاصمة العثمانية (أيرل أون ألجين Earl of Elgin) في الحصول على أمتيازات لبلاده في العراق تضمنت رعاية القنصل البريطاني في بغداد لمصالح التجار والمسافرين ممن يتمتعون بحماية العلم البريطاني وأفضليتهم على غيرهم بحصولهم على تسهيلات كمركية وضرائبية [٣]، وقد فتح هذا التنافس أبواب العراق على مصراعيها أمام التجار والرحالة الأوربيين الذين أخذ معظمهم يتوافد ضمن مهمات خاصة، للحصول على معلومات أقتصداية وعسكرية أكثر دقة وتفصيلا تستفيد منها دولهم في تغلغلها في المنطقة.

وهكذا استطاع الاستشراق ان يجند طائفة من المستشرقين لخدمة الاستعمار وتحقيق أهدافه وتمكين سلطانه في بلاد المسلمين، وعلى ذلك نشأت هناك رابطة رسمية وثيقة بين الاستشراق والاستعمار، وانساق في هذا التيار عدد من المستشرقين أرتضوا لأنفسهم ان يكون علمهم وسيلة لأذلال المسلمين، واضعاف شلأن الاسلام وقيمه، وقد شعر المستشرقون المنصفون بالخجل والمرارة لأخوانهم، فعلق على ذلك المستشرق الألماني المعاصر (أستيفان ويلد Stephan Wild) بقوله: "والاقبح من ذلك، انه توجد جماعة يسمون أنفسهم مستشرقين سخروا معلوماتهم عن الاسلام وتاريخه في سبيل مكافحة الإسلام والمسلمين، وهذا واقع مؤلم لابد ان يعترف به المستشرقون المخلصون لرسالتهم بكل صراحة "[٤].

وفي سنة ١٨٠٨ وصل الى العراق الرحالة الفرنسي (دوبريه) وقد جاءت زيارته في وقت كان فيه العراق يشهد تصاعدا في التنافس البريطاني الفرنسي بعد ان تسلم (سليمان باشا الصغير[٥]) ،السلطة في بغداد بتأثير نفوذ السفير الفرنسي في الأستانة (هوراس سبستاني [٦]) الذي كان شخصية لها نفوذها في بلاط السلطان [٧]، وقد حظي دوبريه بمقابلة والي بغداد ثلاث مرات، ويبدو انها كانت ضمن المهمة المكلف بها

---

[١] المصدر نفسه ، ص ٩٧.

[٢] المصدر نفسه ، ص ٩٨.

[٣] علاء موسى كاظم نورس، الدبلوماسية في العراق ١٨٠٨-١٨٢٣، مجلة المؤرخ العربي ، العدد ١٨ بغداد ، ١٩٨١، ص ٦٢ – ٧٧.

[٤] محمود حمدي زقزوق ، المصدر السابق، ص ٦٠.

[٥] من المماليك وقد شغل ولاية بغداد من ١٨٠٨ الى ١٨١٠.

[٦] عين سفيرا لفرنسا في العاصمة العثمانية في ٢ مايس ١٨٠٦.

[٧] علاء موسى كاظم نورس، حكم المماليك في العراق، بغداد، ١٩٧٥ ، ص٧٢.

والمتعلقة بالعمل على جعل الفرنسيين على قدم المساواة مع الانكليز في مجال الامتيازات ، والطلب من والي بغداد الحد من النشاط البريطاني، وتمتاز المعلومات التي دونها دوبريه في رحلته بالدقة وتعدد جوانبها ونجاحه في المجالات الاقتصادية والعسكرية[1].

وهناك أمثلة كثيرة تدل على أرتباط الاستشراق بالاستعمار، نذكر المستشرق (كارل هينريش بيكر Karl Heinrich Becker) مؤسس مجلة الاسلام الألمانية (ت ١٩٣٣)، فقد قام بيكر بدراسات تخدم الاهداف الاستعمارية الالمانية في أفريقيا، وبفضل جهوده تأسس معهد اللغات الشرقية في برلين عام ١٨٨٧، وكانت مهنته تتلخص في الحصول على معلومات عن البلدان الشرقية الحالية وبلدان الشرق الاقصى، وعن شعوب هذه البلدان وثقافتها[2] .

أما عالم الإسلاميات الهولندي الشهير (سنوك هورجرونجيه Snouck Hurgranje)، (ت ١٩٣٦) فأنه في سبيل أستعداده للعمل في خدمة الاستعمار الهولندي في أندونيسيا قام برحلته المشهورة الى الجزيرة العربية عام ١٨٨٤، فاقام في جدة في آب ١٨٨٤ حتى شباط ١٨٨٥ استعدادا لزيارة مكة، وهو الهدف الاساسي في رحلته، فوصل مكة يوم ٢٢ شباط سنة ١٨٨٥ تحت ستار اسم مستعار هو (عبد الغفار) وأقام بمكة طوال ستة أشهر، كانت ثمرتها كتابه الرئيسي عن مكة، ساعده في ذلك أنه كان يجيد اللغة العربية كأحد أبنائها[3]، ولقد لعب هذا المستشرق دورا هاما في تشكيل السياسة الثقافية والاستعمار في المناطق الهولندية في أندونيسيا حيث شغل مناصب قيادية في السلطة الاستعمارية الهولندية في أندونيسيا [4] .

---

(1) Dubre , Adrien, Voyage en, Perse faitdans les ann ees 1807 Oqen gen traver sant ta natolie et la mesopotamie, (Paris, 1819).

(٢) رودي بارت، الدراسات الأسلامية والعربية في الجامعات الألمانية ، ترجمة د. مصطفى ماهر ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ١١.

(3) Bosworth, C. E: Orintalism and orintalists. G. Britain, 1917, P. 78.

(4) عبد الرحمن بدوي ، موسوعة الأستشراق، بيروت ، د. ت. ، ص٢٤٥.

المصادر العربية:

١. إبراهيم بيومي مدكور، أثر العرب والإسلام في النهضة الأوربية، القاهرة، ١٩٧٠.
٢. أحمد أمين، ضحى الإسلام، القاهرة ، ٣ أجزاء ، ١٩٣٨- ١٩٤٣ .
٣. أحمد شلبي ، التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، ج٣ ، ١٩٦٦
٤. أحمد عطية رمضان، موقف المؤرخين العرب من كتابات المستشرقين، مصر.
٥. أحمد عطية رمضان، العلاقات بين المدن الايطالية والدولتين الفاطمية والأيوبية، القاهر ١٩٨٤.
٦. أدوارد سعيد، الأستشراق، ترجمة كمال أبو ديب، بيروت.
٧. الأمام الغزالي، المنقذ من الضلال، تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود.
٨. بانيكار، أسيا والسيطرة الغربية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٢.
٩. بغداد مدينة السلام ، ج٢ ، ترجمة فؤاد جميل ومصطفى جواد ، بغداد ، ١٩٦٧ .
١٠. تا فرنييه ، العراق في القرن السابع عشر.
١١. جاك. س. ريسلر، الحضارة العربية، ترجمة غنيم عبدون، مراجعة د. أحمد الأهواني، القاهرة، ١٩٧١.
١٢. رودي بارت، الدراسات الأسلامية والعربية في الجامعات الألمانية، ترجمة د. مصطفى ماهر، القاهرة ١٩٦٧ .
١٣. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام ، القاهرة.
١٤. ساوذرن، نظرة الغرب إلى الإسلام في القرون الوسطى، ترجمة د. علي فهمي خشيم ود. صلاح الدين حسني، ليبيا، ١٩٧٥.
١٥. ستيفن هيمسلي لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، نقله إلى العربية جعفر الخياط، الطبعة السادسة ، بغداد ، ١٩٨٥.
١٦. سرو اليس رحلات إلى العراق، ج١ ، ترجمة فؤاد جميل ، ط١ ، بغداد ١٩٦٦.
١٧. صالح رمضان محمود ، أهم المبدعين في مجالات الفكر والعلم التي أغنت بها الحضارة العربية الإسلامية المسيرة الإنسانية، ، جامعة عدن، ١٩٨١.
١٨. عبد الحي شعبان، التاريخ الإسلامي بجزئين، ١٩٧١.
١٩. عبد الرحمن بدوي ، موسوعة الأستشراق، بيروت ، د. ت.
٢٠. عبد الرحمن الميداني، غزو في الصميم، بيروت، دار القلم، ط١، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م
٢١. عبد اللطيف طيباوي، المستشرقون الناطقون بالانجليزية، مجلة العالم الإسلامي، ترجمة الدكتور فتحي عثمان، ١٩٦٣.
٢٢. عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسي للدولة العربية، القاهرة ، ١٩٧٩ ؛ فيليب متي، تاريخ العربي، ١٩٣٧.
٢٣. علاء موسى كاظم نورس، حكم المماليك في العراق، بغداد، ١٩٧٥ .
٢٤. علاء موسى كاظم نورس، الدبلوماسية في العراق ١٨٠٨-١٨٢٣، مجلة المؤرخ العربي، العدد ١٨ بغداد، ١٩٨١.
٢٥. عمر فروخ ومصطفى الخالدي، التبشير والاستعمار، بيروت، المكتبة العصرية، ١٩٨٣.
٢٦. لورانس براون، (الإسلام والإرساليات Islam and Missicns) .
٢٧. مالك بن نبي، أنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الأسلامي الحديث ، مجلة الفكر العربي، العدد ٣٢، القاهرة ١٩٨٣.
٢٨. محمد اسعد أطلس ، تاريخ الأمة العربية ، بيروت ١٩٣٦ ؛ محمد كرد علي، الإسلام والحضارة العربية، القاهرة ، ١٩٣٤- ١٩٣٦.

٢٩. محمد البهي، الفكر الأسلامي الحديث، مقالة ملحقة للدكتور حسين مؤنس في نقد المستشرق (فييت) ، بيروت ١٩٧٠.
٣٠. محمد البهي، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، بيروت ، ١٩٧٠.
٣١. محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس، ط٣، مطبعة التأليف، ١٣٨٦ هـ، ١٩٦٦م .
٣٢. محمد كامل حسين، الطب والأقربازين، من كتاب أثر العرب والأسلام في النهضة الأوربية.
٣٣. محمود حمدي زقزوق، الأستشراق، الدوحة ١٤٠٤.
٣٤. محمود حمدي زقزوق، الأسلام في الفكر الغربي، الكويت ١٩٨٠.
٣٥. مكسيم رودنسون، تراث الاسلام، ترجمة محمد زهير السمهوري، تصنيف شاخت وبوزورث، ج١ ، سلسلة عالم الفكر ، الكويت ، ١٩٧٨ .
٣٦. هشام جعيط ، أوربا والأسلام، ترجمة د. طلال عتريسي، بيروت، ١٩٨٠.

المصار الأجنبية:

1 Bosworth, C. E: Orintalism and orintalists. G. Britain, 1917, P.78.
2. Dubre , Adrien, Voyage en, Perse faitdans les ann ees 1807 Oqen gen traver sant ta natolie et la mesopotamie, (Paris, 1819).
3. Niebuhr, Carsten, Voyage en Arabic Amsterdam, 1776, Description de L Arabic , (Amsterdam), 1774.
رحلة نيبور الى العراق في القرن الثامن عشر، ترجمة عن الألمانية محمود الأمين ، بغداد ، ١٩٦٥.